الشعر الصيني

لرياض معلوف – زحلة لبنان

منذ الزمن البعيد والشعر في الصين له منزلته أي في عهد (تشيو) في القرن الثاني عشر قبل عصرنا . ولم يبق من هذه الحضارة التي تعود الى الجيل الثامن والعشرين قبل الميلاد سوى بعض خرافات وأسماء ، ومما يتضح لنا ان مناخ البلاد وخطة بناء آثارها لم تترك دلائل حساسة كما هي الحال في مصر وبلاد الكلدان .

وأول كتاب الذين هم (كنفوشيوس) و (لوتزه) فالاول والثاني عاشا في الجيل السادس قبل الميلاد . (فكنفوشيوس) لم يكن شاعرًا فيلسوفاً وله كتاب (طريق الجلال الحميدة) وهو مؤلف شعري فيه تأملات وابتهالات تتصل بالحقائق الروحية عن طريق النغم والصورة الشعريين وهذا انموذج حي من هذا الشعر المعروف بسحر الشرق :

الطريق التي نسلكها
ليست الطريق الابدية !
والإسم الذي نسمي به
ليس الإسم الخالد . .
والنير مسمى هو سبب وجود السماء والأرض !
والمسمى هو أب كل البشر
اذن هذا هو الخالد دون رغبته ، والمكتشف الروح !
والرغبة الأبدية التي تكتشف الحدود
وهاتان المعرفتان هما بمعنى واحد
وإن اختلف اسمها
وهذه وتلك تسميان السر – سر السر . . .
باب كل روح !

. وله ايضاً هذه القصيدة العميقة المغزى بعنوان : العلم الأسمى .

دون ان أمرَّ بالباب أعرف العالم
ودون ان افتح الشباك استكشف طريق السما !
والذاهب كلما ابتعد كلما عجز عن الفهم !
هكذا العاقل يتقدّم دون أن يمشي
ودون أن يرى يعرف الاسماء .
ودون ان يهتم ينجح !

وكنفوشيوس رغم انه لم يكن شاعرًا فانه كان مولعاً بالعزف على القيثار وبالغناء مع تلامذته وتبّاعه حيث قال عنه أحد هؤلاء انه كان يهوى الشعر وله مؤلف مشهور (شوكنغ) أو كتاب الأشعار . ونظم بعض شعره في امتداح أباطرة الصين وأنشده في قصورهم :

ويزعم كنفوشيوس وتلاميذه ان ملكاً قديماً قبل عهد الإهانة التي أنزلها القيصر بقارس اسمه (ليبريوس) الذي أجبره على الرقص له .

وهذه الأبيات التالية بعنوان الراقص مصداقة لما تقول :

انني سأرقص وأرقص .
غير مبالٍ ... الآن في منتصف النهار
انني اقفز وانطلق !
قامتي عالية منتصبة !
وفي قصر الملك أنا أرقص ...
أنا قوي مثل النمر
أطوي الجلد ... مثل قطعة النسيج
ويدي اليسرى تحمل الشّابة
والثانية ريشة الديك !

وعلى ما يظهر ان الشعر الصيني وزنه كالوزن الشعري الفرنجي على التقطيع نفسه وبعضه على الايقاع ما بين مقطعين على طريقة المزامير بعد ذلك تستكمل

القصيدة بالنثر الشعري الحر المطلق ويسمى — المجنون — لانه على السجية الإيقاعية وعلى هوى الإلهام !

وشاهدنا على ذلك الشاعر (كويوبون) الذي عاش في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد وكان وزيراً عند الأمير وأسر في ناحية نائية من الصين حيث قضى وقته في جمع بعض الاعتقادات وتعاطى كذلك السحر والشعوذة ثم يئس من الحياة ورمى بنفسه في النهر وحتى الآن يعيدون في الصين لهذا الانتحار الغريب في اليوم الخامس من الشهر الخامس من كل سنة. وهذه هي قصيدته البديعة — جنية الجبل

من الذي أراه في قلب الجبل
حيث يتيه النظر وترتسم البسمة !
هل تتطلب انت المنزلة التلقائي معك .
أجرُّ أمامي الحيوانات المفترسة
المرتبطة بها عربتي المصنوعة من أغصان الزيزفون والورد
وأضع عصبةً وغطاء لرأسي من الزهر
وأقتطع غصناً معطراً لأفكاري !
ومسكني غابة القصب التي تحجب عني السماء !
الطريق صعبة أسير فيها وحيدة . . .
فتظلني الغيوم . . .

وينتهي هكذا بقوله :

الهواء يدور ويعصف
والأشجار تصفر
انني أفكر بك وحيدةً في حزني !

وفي معهد (طانغ) في العصر الثامن والتاسع كان الملوك يرعون الآداب والفنون وخاصةً الشعر . وكذلك في عهد الامبراطور (منغ) الذي سمي قديساً بعد مماته تحت اسم (هيون تسنغ) أو الجدّ الساحر وكان هو ايضاً شاعراً وعطف

على زمرة من الشعراء أدخلهم في حاشيـة قصره مثل : (ليوتنغ تشو و (ليتباه) وهو أشهرهم جميعاً و (وتنغ واي) الذي كان معدوداً ايضاً و (تشنغ كيان ودتوفو) و (منغ هوجن) ومن قول هذا الاخير وفيه السحر الكلامي :

سعادة الأرواح السماوية تشغل تفكيري
وصوت الارغن محفور على قلبي !

ومما شك فيه ان الشعر الصيني تأثر إلى حد بعيـد بالآداب الانكليزية والأميركية وابتدأت الآن في عصرنا هذا نهضة شعرية وثابتة ودليلنا على ذلك بعض مقاطع للشاعرة (سيه بنغ سن) في الأمومة :

— في السماء وفي قلبي تهب العاصفة !
وما لي مأوى إلا في قلبك ...

ومن لطيف قولها في الطفولة :

ايتها الطفولة !
يا حقيقة الحلم
وحلم الحقيقة !
ايتها الذكرى الممزوجة بالدموع والابتسامات !

ومما وصفت به الأوقيانوس واجادت :

أيها الأوقيانوس أأنتَ نجمة دون نور ..
أم وردة بلا رائحة ؟
في كل هنيهة تصطدم أمواج أفكاري
بصدى أمواجكَ الجبَّارة !

الى ما هنالك من قطع أخاذة تدعو الى عمق التفكير ويتضح لنا بذلك ان الشعر الصيني راقٍ وساحر وفيه الكثير من الطلاسم الإلهامية والرموز والصور التي تُذهل وتدهش ! وعلى ما نرى ان الشعر انبعث الى العـالم كله من الشرقين الأدنى والأقصى وهكذا اعمَّ الخافقين .

الموسيقي الاعمى !

أناميل يشبع بها الغناء
وتلعبُ باللحون كما تشاء
كأنَّ بها من الحدقات عشرًا
فكل يدٍ بها خمس سواء
وحطَّ بكل أنملةٍ هزار
يزقزق ثم يحجبه الفضاء !
فآتا كالربيع نعى هديرًا
لطيفاً ثم يعقبه الشتاء ...
فتمتمة وهمهمة وهمسٌ
كما جمع الحبيبين اللقاء
وأعمى في تفننه بصيرٌ
يلحن مثلما توحى السماء !
شبيه الطير تفقأ مقلتاه
ليقضي العمر يشغله الغناء ...
ولا يدري بما في الأفق يجري
أطلَّ الصبح أو هبط المساء !

رياض معلوف